مركز حرمون
للدراسات المعاصرة
Harmoon Center
For Contemporary Studies

# نظرة عن قرب إلى الهوية والبنية القبلية في سورية

وحدة المقاربات القانونية

الكاتب: ديمة حسين

10 أيار/مايو 2019

# مركـز حرمـون
## للدراسـات المعاصـرة

مركز حرمون للدراسات المعاصرة هو مؤسسة بحثية وثقافية وإعلامية مستقلة، لا تستهدف الربح، تعنى بشكل رئيس بإنتاج الدراسات والبحوث المتعلقة بالمنطقة العربية، خصوصا الواقع السوري، وتهتم بالتنمية الثقافية والتطوير الإعلامي وتعزيز أداء المجتمع المدني، ونشر الوعي الديمقراطي وتعميم قيم الحوار واحترام حقوق الإنسان، إلى جانب تقديم الاستشارات والتدريب في الميادين السياسية والإعلامية للجهات التي تحتاج إليها في المجتمع السوري انطلاقا من الهوية الوطنية السورية.

يعمل مركز حرمون للدراسات المعاصرة لتحقيق أهدافه من خلال مجموعة من الوحدات التخصصية (وحدة دراسة السياسات، وحدة البحوث الاجتماعية، وحدة مراجعات الكتب، وحدة الترجمة والتعريب، وحدة المقاربات القانونية) وعدد من برامج العمل (برنامج الاستشارات والمبادرات السياسية، برنامج الخدمات والحملات الإعلامية وصناعة الرأي العام، برنامج دعم الحوار والتنمية الثقافية والمدنية، برنامج مستقبل سورية)، ويمكن للمركز أن يضيف برامج جديدة بحسب حاجة المنطقة والواقع السوري، ويعتمد المركز آليات متعددة في إنجاز برامجه، كالمحاضرات وورشات العمل والندوات والمؤتمرات والدورات التدريبية والنشر الورقي والإلكتروني.

**الدوحة، قطر**
+974 44 885 996
**إسطنبول، تركيا**
+90 212 524 0404
**harmoon.org**

# المحتويات


مقدمة ..... 2

ما الهوية القبلية في سورية؟ ..... 3

1. الخصائص القبلية ..... 5

2. القوانين القبلية ..... 9

الهوية القبلية في الأدب ..... 11

1. الباحثون والزوار الغربيون في القرن التاسع عشر ..... 11

2. الباحثون والمفكرون العرب ..... 14

القبائل والدولة ..... 16

1. القبائل والدولة في سورية ..... 18

2. القبائل والصلحة القبلية في سورية ما بعد الأزمة ..... 19

ملاحظات ختامية ..... 23

## مقدمة

تستكشف هذه الورقة معنى القبيلة وتشكلها في الشرق الأوسط، مع التركيز على سورية. إن فهم الهوية والبنية القبليتين[1] وكيفية تغيرهما عبر التاريخ هو مفتاح لفهم القبائل في الشرق الأوسط بصورة عامة، وفي سورية على وجه الخصوص. هذه الدراسة مهمة وحيوية من أجل بناء أساس متين لفهم أكثر عمقًا للهوية السورية القبلية وبنيتها. تبحث هذه الدراسة في جوانب عدة؛ يمكن أن تحدد وتحيط بمفهوم القبيلة بشكل أفضل. وتشير الورقة إلى أن مفهوم القبائل أكثر تعقيدًا بكثير مما يبدوعليه للوهلة الأولى، وأنه ليس مفهومًا ثابتاً، ولا قالبًا واحدًا يناسب القبائل جميعها في سورية.

يتفحص القسم الأول مفهوم "القبيلة" في سورية، وما يميزها من مفهوم القبيلة في أجزاء أخرى من العالم. تُعرّف القبائل في سورية من خلال بنيتها الاجتماعية ومعاييرها واقتصادها وقوانينها القبلية. في هذا القسم، سأركز على البنية الاجتماعية وعلى الأعراف، بما يشرح طبائع القبيلة، ومنها: القربى، والشرف، والسمعة الفردية، وغيرها، ثم سأتحدث عن اقتصاد الرعي عند القبائل، وأخيرًا، الزراعة بوصفها جزءًا من سمات القبيلة. توضح هذه الدراسة كيف أثّر نمط الاقتصاد في تصنيف القبائل، وفي كلٍ من الهوية والبنية القبليتين. أخيرًا، سأدرس كيفية ممارسة القانون القبلي في سورية. إن المخطط الناتج عن النظام الاجتماعي والاقتصادي والقانوني القبلي؛ سيسمح لي بفحص الطريقة التي تتفاعل بها القبيلة في سورية مع القبائل الأخرى ومع الحكومة المركزية.

يستعرض القسم الثاني الهوية القبلية في أدبيات باحثين عرب وغربيين مختلفين للوصول إلى فهم أفضل لكيفية عرض قضية القبائل وتقديمها. وقد أنتجت هاتان الفئتان من الكتاب دراسات عن القبائل في الشرق الأوسط، بما فيها سورية.

يوفر تفحص منشوراتهم مراجعة لمجال دراسة القبيلة في سورية، والنواحي التي تمت معالجتها، والمجالات التي تحتاج إلى مزيد من التحقيق. كان الرحالة الغربيون والمستكشفون والعلماء يكتبون أثناء فترة الاستعمار الغربي. عند زيارتهم منطقة الشرق الأوسط للمرة الأولى، دُهشوا لإيجاد عالم مختلف تمامًا عن عالمهم، عالم يعتمد في الغالب على الرعي والزراعة.[2] فعكسوا في تجاربهم الازدراء أو الرومانسية. انتقد الباحثون العرب بشدة الكتاب الغربيين، واتهموهم بأنهم مستشرقون وجواسيس وعملاء استعماريون. الباحثون العرب -قبل القرن التاسع عشر وبعده- هم المصدر الآخر المهم لدراسة القبائل. ركزوا على علم الأنساب وتسمية القبائل المختلفة، وتوفير القرائن لتاريخ القبائل وتفاعلها مع الفئات الاجتماعية الأخرى

---

[1] أستخدمُ هذين المفهومين- في إطار هذه الورقة- للإشارة إلى المعنى التالي :الهوية القبلية هي الشعور بالانتماء إلى القبيلة والتضامن مع الجماعة. والبنية القبلية هي بناء القبيلة بتراتبية القرابة فيها، والمشيخة، ومختلف الفروع والتحالفات .سيتم شرح كل من المفهومين في النص بأكمله وتحديدًا في القسم الثالث، حيث سيتم شرحهما على نطاق واسع.

[2] Steen, E.J. van der, Near Eastern Tribal Societies During the Nineteenth Century: Economy, Society and Politics between Tent and Town, Sheffield; Bristol, CT: Equinox, 2013: xi.

في مجتمعها. ومع ذلك، بالمقارنة مع الدول العربية الأخرى، فإن الدراسات الحديثة التي أنتجها باحثون عرب بشأن القبائل في سورية الحديثة محدودة العدد. في هذا القسم من الورقة، سأتفحص هاتين المجموعتين من الكتاب جنبًا إلى جنب، في حين إنه لم تقدم أي من المجموعتين أي تحليل معمق حقيقي، لكن كتاباتها تُقدّم مصادر مهمة لفهم كيف تغيّرت معايير القبائل وأنماطها مع مرور الوقت.

يتناول القسم الثالث ثنائية الدولة والقبيلة من خلال دراسة العلاقة التاريخية والنظرية بين الاثنتين. وقد عدَّ بعض الباحثين القبائلَ تشكيلات سابقة للدولة في طريق تطورها؛ لكي تصبح دولًا. هذا الرأي هو نتيجة لتبني مفاهيم مُسبقة عن القبائل في الشرق الأوسط، نجمت عن مقارنة القبائل في هذه المنطقة بالقبائل في أجزاء أخرى من العالم. والحقيقة، هي: أن القبائل أسهمت في بناء الدولة في الشرق الأوسط، وكذلك في التعايش والتشابك مع الدول. لقد تعاملت دول الشرق الأوسط على الدوام مع القبائل، وتلاعبت بها، وفي الوقت نفسه استفادت القبائل من سلطة الدولة لتعزيز قوتها الذاتية وكسب النفوذ.[3] ثم سأشرح في هذا القسم كيف لعب تفاعل القبيلة مع الحكومات المركزية القوية في سورية دورًا أساسيًا في تغيير طبيعة القبائل. إن طبيعة كل من القبيلة والدولة أدت إلى دخولهما في علاقة صراع على السلطة. لقد اكتسبت القبائل السلطة كلما كانت الدولة ضعيفة، وفقدتها كلما كانت الدولة قوية. بكلمات أخرى: هناك علاقة عكسية بين سلطة القبيلة وقوة الدولة؛ لهذا اكتسبت القبائل في سورية بعد الأزمة المزيد من القوة، وصار القانون العرفي القبلي يُمارس أكثر من ذي قبل، وصار يُستعان بمنطق الصُلحة القبلية نفسه من قبل أنواع مختلفة من مبادرات التقاضي البديلة التي وضعتها مختلف الفصائل العسكرية والمنظمات غير الحكومية.

## ما الهوية القبلية في سورية؟

كان- على الدوام- فهم القبائل في سورية والشرق الأوسط- بصورة عامة- صعبًا على علماء الاجتماع والمؤرخين و الأنثروبولوجيين العاملين في هذا المجال؛ فما يزال مفهوم القبيلة وكيف تطور هذا المفهوم غير واضحين إلى اليوم. تستخدم كلمة "قبيلة" لوصف مجموعة واسعة من الجماعات والبنى الاجتماعية المختلفة في سورية، اعتمادًا على معايير مختلفة.[4] على سبيل المثال: صنّف الأنثروبولوجي ديل إيخلمان مرجعيات الهويات القبلية في الشرق الأوسط في أربع فئات: الأيديولوجية العرقية-السياسية، والأهداف

[3] Eickelman, D.F., The Middle East and Central Asia: An Anthropological Approach, Upper Saddle River, N.J: Prentice Hall, 1998: 124; see also: Khoury, P.S., and Kostiner, J., eds., Tribes and State Formation in the Middle East, Berkeley: University of California Press, 1990: 40.

[4] Ibid: 41

الإدارية التي أنشأتها سلطات الدولة، والمفهومات العملية المستخدمة من قبل أفراد القبائل أنفسهم، والمفهومات الأنثروبولوجية.[5]

تشير الفئة الأولى، الهويات العرقية-السياسية، إلى الطريقة التي تتباين بها الهويات العرقية السياسية في أنحاء الشرق الأوسط جميعها، ولكنها تستند بصورة عامة إلى نسبٍ أبوي سائد يشكل هوية سياسية موحدة. وتستند الفئة الثانية إلى الجهد الإداري الذي توجهه الدول، بما في ذلك الإمبراطورية العثمانية، والقوى الاستعمارية، وعدد من الدول المستقلة في الشرق الأوسط. ترى هذه المفهومات الإدارية: أن القبيلة هوية جمعية ذات حدود إقليمية ثابتة، على الرغم من أن هذه الحدود لا توجد بالضرورة. وتدير الدولة هذه المفهومات الإدارية بطريقة تعطي امتيازات وسلطة لبعض زعماء القبائل، الذين يعتمدون على دعم الدولة بدلًا من كونهم زعماءها الطبيعيين المتعارف عليهم من قبل رجال القبيلة. على سبيل المثال: عززت القوى الاستعمارية في عدد من دول الشرق الأوسط، ومنها سورية، الهوية القبلية، واستخدمت أساليب الإدارة القبلية ووسائل التسجيل لقمع الحركات القومية.[6]

الفئة الثالثة، هي مفهوم عملي للقبيلة يتمسك به ضمنًا أفراد القبائل أنفسهم. هذا المفهوم هو ما يرشدهم في سلوكهم الاجتماعي وفي تفاعلهم مع الجماعات الأخرى. وهو يتطور من خلال الممارسات الاجتماعية، ولا يتم التعبير عنه بصورة رسمية بطريقة مجردة، ومن ثم، فإنه يصعب على علماء الأنثروبولوجيا وصف هذه المفهومات. يستخدم رجال القبائل، على سبيل المثال، مفهوم القبيلة بطرق مختلفة اعتمادًا على وضعهم الاجتماعي والسياسي. غالبًا ما يقدم الأفراد المسيطرون في القبيلة أيديولوجية القبيلة بطريقة معقدة لاستخدامها في علاقاتهم مع القبائل الأخرى، ولتعزيز مواقفهم مع سلطات الدولة، في حين يبسط الأفراد الأقل منزلة المصطلح الذي يستخدمونه في وظائفهم العملية مثل حقوق ملكية الأرض وعلاقات الزواج، وعدد من علاقات الانتفاع الأخرى.[7]

تنشأ الفئة الأخيرة التي وصفها إيخلمان من التحليل الأنثروبولوجي. اعتمد علماء الأنثروبولوجيا غالباً على زعماء القبائل مصدرًا وحيداً للمعلومات، مما أنتج فهماً مختلفًا عما إذا كان رجال القبائل العاديين مصداراً للمعلومات، هذا إلى لم نتطرق لذكر نساء القبيلة. يتمسك علماء الأنثروبولوجيا بالفهم الشعبي نفسه السائد بين العرب الحضر عن القبيلة، على أنها "بدائية" وبقايا من الماضي.[8] في الواقع، فإن مصطلح "المجتمع البدائي" هو مصطلحٌ غير مناسب بشكل خاص للجماعات في سورية، مثل: العرب، والأكراد،

---

[5] Eickelman, D.F., The Middle East and Central Asia: An Anthropological Approach, (n4): 124-28.

[6] Ibid.

[7] Ibid.

[8] Ibid.

وغيرهم، حتى ولو تم اطلاقه على أساس حجمها وتعقيدها وانعدام وحدتها.[9] تستند مفهومات الأنثروبولوجيا إلى النظريات الاجتماعية في محاولة لفهم العلاقات الاجتماعية القبلية. هذه المفهومات، حسب هذا المنطق، هي تفسيرات سلطوية، وليست أكثر دقة من فهم الجماعات الحضرية الأصلية. حتى أنهم يمتلكون مواقف ليست أقل فوقية تجاه القبائل.[10] بناء على كل ما سبق، سأقدم شرحاً للقبائل في سورية من خلال فحص مزيتين مهمتين للقبائل: الخصائص القبلية، والقانون القبلي. الخصائص القبلية هي جوهر القبلية، والقوانين القبلية هي جوهر النظام القبلي في مناطقهم.

## 1. الخصائص القبلية

تتميز القبائلَ في سورية عن الجماعات الاجتماعية الأخرى بعدد من الخصائص والتي تحدد افتراضات أفراد القبيلة وسلوكهم. كما وتحدد علاقات أفراد القبيلة داخل قبيلتهم وعلاقاتهم مع القبائل الأخرى، كما وتوفر الأدوات الثقافية لتفاعل أعضاء القبيلة. هذه الخصائص، هي: علاقات القربى، والمشيخة، والشرف، والسمعة الشخصية، واقتصاد القبيلة. في ما يلي سأصف كل واحدة منها على التوالي.

علاقات القربى في قبائل سورية، هي: نظام أبوي يولّد شعورًا جماعيًا (العصبية)،[11] الذي- بدوره- يدفع بأفراد القبيلة جميعاً للتعاون. أفضل تمثيل لهذا الرابط هو من خلال المثل الشعبي الشائع" أنا ضد إخوتي، وأنا وأخوتي ضد أبناء عمي، وأنا وأخوتي وأبناء عمي ضد العالم". إن البنية التي تشكلها وحدات الأنساب وعلاقاتها المبنية على التحالف والعداء هي ما يجمع القبيلة كلها كوحدة. إن طبقات النسب هذه هي نموذج تاريخي موجود في أجزاء مختلفة من العالم، وقد أكّده روبرتسون سميث، ولاحقًا إميل دورخايم في أفكاره حول "التضامن الميكانيكي".[12] إن نظام التراتب الهرمي الاجتماعي، ليس واضحًا ضمن تركيبة النسب الأبوي هذه. على العكس، هناك مبدأ من العدالة يشكل العلاقات بين أفراد القبيلة، ومن ثم، يُنظَر إلى القبائل على أنها مجتمعات متساوية.[13] بالاعتماد على هذا المبدأ يتم تهميش دور الوجهاء أو حتى زعيم القبيلة من

---

[9] Khoury, P.S., and Kostiner, J., eds., Tribes and State Formation in the Middle East, (n4): 41.

[10] Eickelman, D.F., The Middle East and Central Asia: An Anthropological Approach, (n4): 127–28.

[11] الشعور الجماعي أو العصبية Aṣabyah وهي مصطلح شائع في اللغة العربية، يشير إلى الشعور بالانتماء إلى مجموعة معينة .يستخدم في الغالب في السياق القبلي للإشارة إلى الوحدة القبلية والإحساس بالمصير المشترك .استخدم المصطلح لأول مرة في الأدب لابن خلدون، في مقدمته للإشارة إلى هذه الروابط الاجتماعية للمجتمعات باعتبارها دافع التغيير السياسي.

[12] Lindholm, C., Kinship Structure and Political Authority: The Middle East and Central Asia, Comparative Studies in Society and History, Vol. 28, No. 2, Apr., 1986: 343-44

*.التضامن الميكانيكي، هو: شعور بالتعايش في المجتمع، ينشأ نتيجة القيام بعمل متشابه، وتقاسم تجارب وأعراف وقيم ومعتقدات متشابهة، .يعود المصطلح إلى عالم الاجتماع إميل دوركهايم في عام1893 ، لشرح ما يبقي بعض المجتمعات متقاربة ومجتمعة، أو يفسر: لماذا لا يتشظى المجتمع .يعتقد دوركهايم: أن التضامن الميكانيكي يميز أقل المجتمعات تقدمًا من الناحية التكنولوجية، مثل تلك التي تعتمد على الصيد والتجمع] م[.

[13] Steen, E.J. van der, Near Eastern Tribal Societies During the Nineteenth Century: Economy, Society and Politics between Tent and Town, (n3): 10-11.

قبل المؤمنين بالمساواة في المجتمع القبلي على أساس أن أيًا من هؤلاء ليس لديه سلطة مطلقة على القبيلة.[14] هناك سبب آخر لهذا الاعتقاد، هو: أن السمعة الشخصية هي أساس السلطة السياسية؛ وذلك إن وجدت السلطة السياسية بأي حالٍ في النظام القبلي.[15] وفقًا لهذا الفهم، يعيش المجتمع القبلي في حالة المجتمع الطبيعي* ولديه عقد اجتماعي مثل ذلك العقد الذي تحدث عنه: هوبز، وروسو.

هناك مزية أخرى من القربى القبلية هي شبكات القبيلة وفروعها. تنقسم القبيلة في سورية عادة إلى عشائر عدة، التي تتكون من أفخاذ عدة، ومن وحدات أصغر تدعى حمولة، بينما في أسفل بنية القبيلة هناك العائلة.[16] ومع ذلك، يتم استخدام هذه المصطلحات بطريقة أكثر تعقيدًا، أو بشكل تبادلي. إن قبيلة مثل عنِزَة في سورية، وهي اتحاد قبلي كبير، هاجرت من شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، يمكن أن يشار إليها على أنها قبيلة، أو اتحاد، أو حتى عشيرة، في حين إن بعض مكوناتها من: حسنة، وسبعة، وفدعان، يمكن أن يشار إليها باسم عشائر أو قبائل. وكما أن شبكة القبائل معقدة وقابلة للتغيير عبر التاريخ؛ فإن حجمها يمكن أن يتمدد أو يتقلص نتيجة للصراعات أو التحالفات مع القبائل الأخرى. قد تتقلص قبيلة كبيرة وقوية إلى حجم عشيرة، لكنها ما تزال تطلق على نفسها اسم قبيلة. وتتغير المصطلحات بحسب البلد والمنطقة والقبيلة نفسها.[17]

يشغل منصب رئيس القبيلة أمير أو شيخ. لدى بعض القبائل الكبيرة أمير ويُعدّ زعيمًا للقبيلة بأكملها وهو موقع مرموق أكثر منه موقع سياسي حقيقي، في حين إن القبائل والعشائر الأخرى معظمها لها مشايخ. الدور الرئيس للشيخ هو تمثيل القبيلة في التعامل مع الغرباء، وقيادة قبيلته في مواجهة القبائل الأخرى. أحيانًا يكون الشيخ قاضيًا، لكن هذا يعتمد على صفاته الشخصية ومعرفته بالقانون العرفي القبلي، وهو ليس جزءًا من مسؤوليته بكونه شيخًا في حد ذاته. عمومًا، لا يخلق الشيخ القانون القبلي أو يطبقه، بل يلتزم بالقانون مثله مثل غيره من أفراد القبيلة.[18] تختلف عملية اختيار الشيخ باختلاف الزمان والمكان، ولكن يُختار الشيخ عادة من قبل رجال القبيلة من بين أكثر الشخصيات شرفًا وحكمة وشجاعة. أحيانًا، يُعيَّن الشيوخ من قبل الحكومة. في الحالات جميعها، القاعدة هي أن يكون الشيخ عضوًا في عائلة ذات منزلة

---

[14] شيء ما، يصبح حقيقة أكثر فأكثر نتيجة تأثير التحضر والاستقطاب السياسي بعد الأزمة السورية.

[15] Ibid; see also: Lancaster, W., The Rwala Beduin Today, Cambridge: Cambridge University Press, 1997: 73.

*مفهوم يستخدم في الفلسفة الأخلاقية والسياسية، ونظريات العقد الاجتماعي، والقانون الدولي للدلالة على الظروف الافتراضية لما كانت حياه الناس عليه قبل قيام المجتمعات] م.

[16] Chatty, D., Syria's Bedouin Enter the Fray. How Tribes Could Keep Syria Together, Foreign Affairs, November 13, 2013, Accessed: January 30, 2018. http://www.foreignaffairs.com/articles/140266/dawn-chatty/syrias-bedouin-enter-the-fray

[17] Steen, E.J. van der, Near Eastern Tribal Societies During the Nineteenth Century: Economy, Society and Politics between Tent and Town, (n3): 8-9.

[18] Bailey, C., Bedouin Law from Sinai & the Negev: Justice without Government, Yale University Press, New Haven, Conn., 2009: 15.

عالية تسمى بيت الشيخ (المشيخة) ويتم توريثه من جيل إلى جيل داخل هذه العائلة.[19] وكما ذُكر أعلاه، فإن مقدار السلطة التي يتمتع بها الشيخ على قبيلته أمرٌ مثير للجدل، ويختلف من قبيلة إلى أخرى ومن وقت إلى آخر. إن الافتقار إلى السلطة المطلقة للشيخ هو أساس الاعتقاد بأن المجتمعات القبلية هي مجتمعات مساواة، أو على الأقل أكثر مساواة مقارنة بالمجتمعات الأخرى.[20]

الشرف هو جوهر النظام الأخلاقي للقبيلة. هو ما يعتقد المجتمع القبلي أنه يميزهم، ويجعلهم متفوقين على الآخرين. إن نظام الشرف مهمٌ جدًا؛ لأنه يحدّد الأعمال الفردية لأفراد القبيلة، والطريقة التي يفسرون بها تصرفات الآخرين، وهو أيضًا الأساس بالنسبة للتقسيم الاجتماعي الهرمي داخل القبيلة. هذا ما يعطي الشيخ والوجهاء الآخرين في القبيلة شرعيتهم في أعين أفراد القبيلة. ميثاق الشرف، هو النسب، والأصل، والنبل. وهو أيضًا قانون أخلاقي يضم التواضع، والكرم، والصدق، والإخلاص، والولاء، والوفاء بالعهد. والأهم من ذلك، أن ميثاق الشرف يشير إلى الاستقلالية والحرية، وهذا بدوره يتضمن كثيرًا من الفضائل، منها القوة الشخصية لمواجهة التحديات وحيدًا والتحرر من هيمنة الآخرين. يتحقق الشرف في عيون الآخرين من خلال الحزم وعدم الخوف، وضبط النفس، والفخر. إن الافتقار إلى الصفات المذكورة أعلاه يجرد الفرد من موقع المسؤولية والاحترام، ويبقيه تحت هيمنة الآخرين، غير أن ما يمنح قانون الشرف أهميته، هو ليس المحتوى بمقدار ما يفرضه من ضرورة الالتزام به. هذا يشير إلى أن ميثاق الشرف قد يختلف من قبيلة إلى أخرى. إن الإخلال بالشرف أمر خطير لكل من القبيلة والفرد؛ لأنه قد يجلب الحرب إلى القبيلة، ويفضي إلى فقدان الفرد لمركزه الاجتماعي.[21]

السمعة الشخصية، هي وسيلة مهمة للغاية لتمييز الذات واكتساب النفوذ داخل القبيلة. هناك طرق عدة يمكن للفرد أن يميز نفسه بها، وإحدى هذه الطرق، هي اكتساب السمعة بوصفه شخصًا غنيًا، وكريمًا. قد تدفع رغبة بعض أفراد القبيلة بخلق سمعة كهذه للإفلاس. هناك طريقة أخرى للتميز، وهي البطولة في ساحة المعركة، خاصة في وقت الغارات؛ لأن هذا يُعدّ علامة على قدرة الفرد على حماية القبيلة والدفاع عن تراثها. كما إن إتقان بعض أشكال الفنون، مثل الشعر، يُعد جديرًا بالاحترام والتقدير. كثير من أولئك الذين أصبحوا أساطير قبلية، كانوا في الواقع شعراء مشهورين، تحافظ قصائدهم على ذكرى قبيلتهم وشهرتها، مثل نمر بن عدوان من قبيلة العدوان في الأردن. تكتسب السمعة الشخصية قيمةً؛ لأنها تمنح الشهرة والشرف ليس فقط للفرد، ولكن للقبيلة كلها. تجدر الإشارة إلى أن كسب سمعة جيدة يعني منزلة اجتماعية أعلى، ونوعًا من الدور القيادي، لكنها لا تجعل الفرد بموقع منافسة مع الشيخ. حيث يختلف موقع الشيخ

---

[19] Chatty, D., Leaders, Land, and Limousines: Emir versus Sheikh, University of Pittsburgh- of the commonwealth System of Higher Education, Ethnology volume: 16(4), 1977: 389 (journal article).

[20] Abu Lughod, L., Veiled Sentiments: Honor and Poetry in a Bedouin Society, Berkely, CA: University of California Press, 1986: 78-81.

[21] Steen, E.J. van der, Near Eastern Tribal Societies During the Nineteenth Century: Economy, Society and Politics between Tent and Town, (n3): 11; Abu Lughod, L., Veiled Sentiments: Honor and Poetry in a Bedouin Society, (n20): 85-7.

عن موقع البطل أو عن موقع الشاعر. الشيخ هو ممثل القبيلة، في حين إن البطل هو مصدر فخر لنفسه وللقبيلة معاً.[22]

يتم تحديد الاقتصاد القبلي من خلال مصدر الدخل ونظام الملكية العقارية. وغالبًا ما يُعتقد، أن مصدر اقتصاد القبائل في الشرق الأوسط يعتمد على الرعي (تربية الجمال)، لكن في الواقع، هذا ينطبق على عدد صغير من القبائل فقط؛ تلك التي ما تزال تعيش حياة البدو الرحل. صنف أوبنهايم Oppenheim القبائل في ثلاث فئات: القبائل البدوية، ونصف البدوية، والفلاحين. فالقبيلة البدوية تربي الجمال وتعد نفسها في مرتبة أعلى من القبائل الأخرى. والقبائل نصف البدوية تربي الأغنام، وتعمل أيضًا في الأرض؛ حيث تزرع العلف فقط وليس الخضار.[23] إنهم يعيشون في منازل أو أكواخ، لكنهم ينتقلون إلى الخيام القريبة من مناطقهم الرعوية خلال فصلي الربيع والصيف، ومن ثم، فهم نصف مستقرون ونصف بدو رحل. أما الفئة الثالثة، فهم الفلاحون الذين يستوطنون في مكان واحد. ويعيشون مع قبيلتهم أو عشيرتهم، ويعملون في تربية المواشي.[24]

تحولت القبائل معظمها حاليًا إلى نمط الحياة الثالث، وتكيّفت أكثر فأكثر مع نمط الحياة الحضرية. تقوم القبائل بتبادل منتجاتها الرعوية والزراعية، وقد يكون لديها خيارات اقتصادية أخرى اعتمادًا على منطقتها وشبكاتها الاجتماعية. دخل رجال القبائل مؤخرًا أنواع المهن جميعها، وتفاعلوا بشكل أكبر مع المجتمعات الحضرية الأخرى. أما من حيث نظام الملكية في القبيلة، فهذا أيضاً يعتمد على نوع القبيلة. ففي الوقت الذي كانت تعيش فيه القبائل حياة رعوية، عرفوا نوعين من الملكية: الملكية الجماعية، والملكية الفردية. كانت الأرض ملكية جماعية؛ فلا يجوز لأحدٍ أن يمتلك أرضًا بشكل فردي، سواء أكانت مكان نصب خيام القبيلة أم الأراضي الرعوية. وتشمل الممتلكات الشخصية لأفراد القبيلة: الخيمة أو البيت، وحيواناتهم، ودخل عملهم في الزراعة أو التجارة، وحتى الغنائم المكتسبة من الغارات الناجحة على القبائل الأخرى، إذا كانت مثل هذه الغارات لا تزال تُمارَس من القبيلة.[25] في الوقت الحاضر، اختفت الملكية الجماعية للأرض بالكامل بالنسبة للقبائل غير البدوية، ولا توجد سوى الملكية الفردية.

---

[22] Steen, E.J., van der, Near Eastern Tribal Societies During the Nineteenth Century: Economy, Society and Politics between Tent and Town, (n3): 11-12.

[23] الزراعة بشكل عام، وزراعة الخضار بشكل خاص، مزدراة من القبائل البدوية.

[24] See: Oppenheim, M., Braunlich, E., Caskel, W., Shubber, M., Bedouins, Arabic translation published by Dar Alwarrak for publishing, UK, part 1, 2007: 12-13.

[25] Steen, E.J., Near Eastern Tribal Societies During the Nineteenth Century: Economy, Society and Politics between Tent and Town, (n3):12-13.

## 2. القوانين القبلية

القوانين القبلية، هي الأعراف التي كانت تمارسها القبائل في الشرق الأوسط قبل الإسلام بآلاف السنين.[26] وقد تطورت هذه القوانين من تقاليد القبيلة واحتياجاتها لضمان الأمن والسلام بين القبائل وفي أنحاء الصحارى. المصدر الرئيس لقانون القبائل هو الأعراف غير المقننة، وهي في معظم الحالات قديمة جدًا. وهي متماثلة إلى حد ما في أنحاء المنطقة العربية جميعها، حيث انتقلت القبائل وهاجرت في مناسبات عدة ضمن المنطقة. وقد تأثرت بعض القوانين إلى حد ما بالشريعة الإسلامية، وخاصة في شمال أفريقيا، في حين إن تأثير الشريعة الإسلامية أقل وضوحًا في سورية والشرق الأوسط. ومع ذلك، فمنذ زمن ضغوط التوطين الذي مارسته الحكومات الحديثة في المنطقة على العشائر، اخترقت المصطلحات والمؤسسات القانونية الإسلامية بشكل متزايد القوانين العرفية القبلية. القوانين القبلية هي قبلية، بمعنى: أن الغرباء عن القبيلة لا يتمتعون بحماية القوانين القبلية، بل إنهم في حاجة إلى حماية عضو من القبيلة، أو كفيل؛ ليكونوا مؤهلين للخضوع للقوانين القبلية. القوانين القبلية ليست قوانين إقليمية، بل هي قوانين شخصية، وتقع ضمن نطاق القانون الخاص، وبشكل أكثر تحديدًا ضمن القانون المدني والجنائي.[27] تنظم القوانين القبلية كل جانب من جوانب حياة أفراد القبيلة، وتتضمن عمومًا طرق حل النزاعات التقليدية، التي تتألف من إجراءات االتقاضي ونظام عقوبات. بالإضافة إلى قوانين قبلية أخرى مثل الثأر، أو الدخالة (الحق في الحماية). كل من هذه الأساليب هي نظام جدي من الممارسات الموروثة التي تشكل الحقوق والواجبات بين أعضاء القبيلة، وبذلك، تشكل النظام القبلي ككل.

إن عملية حل النزاع، أو الصلحة كما يُطلق عليها في سورية هي مجموعة من الإجراءات السلمية لإنهاء نزاع كان من الممكن أن يأخذ منحىً عنيفاً. بما أن القبائل، كما تمت الإشارة له مسبقاً في هذه الدراسة، ترتبط معًا بميثاق الشرف؛ فإن أي اعتداء على أحد أفراد القبيلة هو اعتداء على القبيلة كلها. يعتقد رجال القبائل أن الثأر سينفي الإساءة لشرفهم. كما أن الثأر سيؤدي إلى أعمال ثأر مضادة من القبائل الأخرى.[28] إن ردود الأفعال هذه يمكن أن تبقي العنف حيًّا بين الطرفين لسنوات، مما يتسبب في خسائر وضحايا كثيرة. فالصراعات خطيرة، وأفضل طريقة للتعامل معها هي إيقافها في مرحلة مبكرة. إن احتمال التصعيد يشجع جانبي النزاع على التماس الصُلحة.

---

[26] Al-Krenawi, A. and Graham, J., Conflict Resolution through a Traditional Ritual among the Bedouin Arabs of the Negev, 38(2), 1999: 165-66. (journal article).

[27] Abu-Rabia, A., Paternity Suits in Tribal Society in the Middle East, US-China Law review, 9(1), 2012: 30-32, (journal article).

[28] Bailey, C., Bedouin Law from Sinai & the Negev: Justice without Government, (n18): 68, 158.

عادة ما يقوم بالصلحة وجيه أو مجموعة من الناس معروفين بحكمتهم ومعرفتهم بقوانين العرف القبلية.[29] يسمى هذا الشخص قاضياً أو "االعارفة"، وهو رجل ذو حكمة. يرث القاضي مركزه من والده الذي كان أيضًا قاضيًا بدوره، أو يصبح قاضيًا لأنه اكتسب معرفة بالعادات القبلية من خلال الممارسة والسمعة الطيبة.[30] عادة ما يستمع القضاة إلى شكاوى الطرفين المتخاصمين، كما ويستمعون إلى الشهود. وبعد مقارنة الملابسات مع القوانين والتقاليد والمنطق القبلي، يصدرون حكمهم. وتشمل الأحكام التعويض، أو إصلاح الضرر أو حتى إبعاد الطرف المنتهك عن القبيلة أو القرية. و لا يصدر القضاة القبليون عقوبات جسدية. بل تكون جميع العقوبات مالية. وقد تشمل العقوبات كذلك ترحيل المذنب إلى خارج قريته، لا سيما في قضايا القتل أو الاعتداء على النساء؛ لأنها تُعدّ جرائم ذات طبيعة خطرة وأعمال مشينة من قبل أفراد القبيلة. ويقرر القاضي مبلغ المال أو الديّه (بحسب ما يطلق عليها بين العشائر)، بما يتناسب مع الحادث ودرجة انتهاك العادات القبلية وميثاق الشرف.[31] ويعتمد القاضي أيضًا على السوابق في المنطقة ومقدار المال المحكوم في حالات أخرى. إن طرد الطرف المذنب من القبيلة يحرمه من حماية قبيلته، وهو أمر يشبه الحرمان من الحقوق المدنية في القوانين الحديثة. يقرر القاضي مسافة الطرد من القبيلة، ثم يتم منع الطرف المطرود من تجاوز هذه الحدود المتفق عليها. إذا تجاهل الطرف المطرود أمر القاضي، وعاد إلى القبيلة قبل الوقت المحدد؛ فسوف يصبح مهدور الدم ولا يجوز لأحد من عائلته أو قبيلته أن يسعى للانتقام عن مقتله أو لطلب الدية. قد لا يكون الطرد دائمًا، ولكن ربما لبضعة أشهر أو لعام أو أكثر، اعتمادًا على الحادثة وكم من الوقت يلزم لاندمال الجروح.[32]

هنالك مفهوم آخر في العرف القبلي هو "الدخالة" (الحق في الحماية)، الذي يشبه إلى حدٍ كبير حق طلب اللجوء السياسي بمفهومه الحديث. عندما يطارد آخرون شخص ما من قبيلتهم سعيًا للانتقام، يمكنه طلب الحماية من قبيلة أخرى، أو من شخص ذي نفوذ، أو من شيخ قبيلة أخرى في منطقته. في هذه الحالة يُصبح من واجب القبيلة أو الشيخ أو الوجيه حمايته. كما أنه من العار حدوث أي شيء سيئ لطالب الحماية، الذي يسمى عادة الضيف أو الدخيل. وبغض النظر عما إذا كان الدخيل مذنبًا لارتكابه عمل مشين أم لا، فإنه سيُمنَح الحماية بغض النظر عن أفعاله.[33]

---

[29] Lang, L., Ṣulḥa Peacemaking and the Politics of Persuasion, Journal of Palestine studies, 31(3), 2002: 52-66, (journal article).

[30] Stewart, F.H., Tribal Law in the Arab World: A Review of the Literature, Cambridge University press, 19(4), 1987: 475.

[31] See: Kennett, A., Bedouin Justice: Laws & Customs Among the Egyptian Bedouin, Cambridge University Press, New York, 1925: 36,46.

[32] Furr, A. and Al-Serhan, M., Tribal Customary Law in Jordan, South Carolina Journal of International Law and Business, 4(2), 2008, Available at: http://scholarcommons.sc.edu/scjilb/vol4/iss2/3

[33] مقابلة المؤلف مع أحد أفراد قبيلة عدوان من ريف محافظة إدلب في سورية.

# الهوية القبلية في الأدب

أنتج كل من الباحثين الغربيين والعرب دراسات عن القبائل. عن طريق الخوض في هذين النوعين من المنشورات يسعى البحث لفهم الهوية القبلية. استخدمت هاتان المجموعتان من الباحثين فهمها الثقافي والمعرفي، وصوّرتا المجتمعات التي تدرسانها بطرق مختلفة ومن خلال أنواع مختلفة من التصنيفات. في هذا القسم، سأناقش مجموعتي الباحثين كلتيهما مع أمثلة من دراساتهما.

## 1. الباحثون والزوار الغربيون في القرن التاسع عشر

أنتج الباحثون والرحالة الغربيون في القرن التاسع عشر، من خلال كتاباتهم، صورةً لا يُمكن تجاهلها عن الهوية القبلية في سورية. قاموا بتطبيق نظريات المعرفة الغربية ونالنظريات الاجتماعية والأنثروبولوجية الموجودة من أجل فهم وتفسير المجتمعات القبلية في الشرق الأوسط. من المهم استكشاف منهجياتهم لفهم الهوية القبلية من وجهة نظر خارجية.

بدأ الاستعمار الغربي في الشرق الأوسط في القرن التاسع عشر. وكانت المنح الدراسية والتقارير التي أعدتها البعثات لاستكشاف المنطقة تحت ذرائع النشاط التبشيري والتجسس والمهمات الأخرى، قد زودت نظام الانتداب الذي أقرّته عصبة الأمم بالمعلومات اللازمة في أوائل القرن العشرين.[34] كانت سورية العثمانية في القرن التاسع عشر، أو سورية الكبرى (التي ضمت كل من سورية ولبنان والأردن وفلسطين) وجهة جديدة للمغامرين والرحالة الأوروبيين، الذين كتبوا كثيرًا من كتب الرحلات والتقارير حول المنطقة. أدى ضعف الإمبراطورية العثمانية، التي حكمت المنطقة منذ القرن السادس عشر، إلى هزيمتها في نهاية المطاف في الحرب العالمية الأولى، والتي مهدت الطريق لقوات جديدة لتحل محلها. تلا هذه الفترات ما كان يُدعى بحقبة العصر الذهبي في أوروبا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، والثورة الصناعية الثانية، واستعمار الأراضي التي أنتجت سيلًا من الثروة تدفقت إلى أوروبا. فتحت هذه الفترة الباب لاكتشاف الأراضي والثقافات الجديدة. اجتذب الشرق الأوسط المستكشفين الغربيين من مختلف الأنواع: علماء الأنثروبولوجيا (الأنثروبولوجيين)، والآثار (الأركيولوجيين)، والمبشرين الدينيين، وضباط الجيش، والجواسيس، والرحالة المستكشفين، والرحالة الرومانسيين. وكانت الوجهة الأكثر تفضيلًا هي فلسطين، الأرض المقدسة، كما كانت كل من مكة، والأردن ، وسورية أيضًا وجهات رائجة.[35]

حمل الزوار الغربيون تصورات معينة، وأحيانًا تحيزات حول المنطقة. ظهرت القبائل البدوية بصورة بارزة في المفهومات الغربية عن محتمعات الشرق الأوسط وتاريخها. تنوعت الكتابات حول القبائل العربية

---

[34] for more information refer to: Satia, P., Spies in arabia: the great war and the Cultural Foundations of Britain's Covert Empire in the Middle East, Oxford: Oxford University Press, 2008.

[35] Steen, E.J. van der, Near Eastern Tribal Societies During the Nineteenth Century, (n3): 18-22.

والبدو من ازدراء للخشونة القبلية مقارنة بالحضارة الغربية إلى الثناء على كرمهم، وعلى قيم الحرية، وعلى عدم الاهتمام بالترف. فيكتور مولر، وهو باحث فرنسي، وهو مثال عن الباحث النقدي الذي كان يرى في المجتمع القبلي كمجتمع أقل من غيره من حيث القيمة. كتب في كتابه، *القائد فيكتور مولر مع البدو في سورية* Commandant Victor Muller en Syrie avec les Bedouins: "إذا كان البدوي متواضعًا؛ فسبب ذلك أنه غير قادر على حمل ممتلكاته إلى أماكن بعيدة. وإذا كان راضيًا عن حياته؛ فمرد ذلك أنه لا يريد أن يُجرّب أي شيء لا يعرفه. وإذا كان كريمًا في بعض الأحيان؛ فذلك أنه ينتظر أن يُعامَل بنفس الكرم من جانب ضيفه، أو أن الكرم يرضي غروره الشخصي".[36] وبالمقابل يُعد ماكس فون أوبنهايم، وهو مؤرخ ألماني، مثالًا لباحث أُعجب بالثقافة البدوية. في كتابه "البدو Die Beduinen "، امتدح البدو وقيمة الحرية لديهم، وكتب: "يمجد البدو حريتهم وإحساسهم القوي بالاستقلال. ولا شيء في رأيهم أفضل من العيش في الصحراء؛ لهذا السبب، فإنهم يحتقرون أي مصدر للإكراه، والحكومات، والضرائب، والخدمة العسكرية، والاستقرار والعمل. لا يتخلى البدو عن قبليتهم إلا في الحالات القصوى".[37] كما كتب العديد من الباحثين الغربيين عن القبائل في سورية، ومنهم آني بلنت ولورنس، واللذين كانا من الكتاب الرومانسيين المفتونين بالصحراء وسكانها. بينما أنتج بعض الباحثين عملًا قيّمًا مثل أوبنهايم، الذي كتب كتابًا من أربعة أجزاء عن البدو، ولا تزال ملاحظات بورخارد، وهو مؤرخ سويسري، حول تاريخ البدو والوهابيين صالحة ومهمة إلى اليوم.

من خلال تحليل هذه الكتابات، يمكننا دراسة عدد من النظريات الأنثروبولوجية التي اعتمدها الكتاب المختلفون. أولًا، حاولت مدرستان فلسفيتان فهم القبائل في الشرق الأوسط: التنكسية، والوضعية (Degenerationism and positivism). ظن أنصار الانحلال/ التنكس: أن التقدم في التكنولوجيا والعالم المادي أدى إلى الانحلال الأخلاقي والبعد عن "الحالة المثالية" والتي من المفترض أنها موجودة في مكان ما في الماضي. كانت هذه المدرسة الفكرية شائعة في الأوساط الدينية، على الرغم من أنها ليست فكرة دينية بحد ذاتها، و بموجب هذه الأفكار تم تبرير مفهوم "الهمجية النبيلة".[38] درس التنكسيون الثقافات البدائية؛ من أجل تتبع النبل الأخلاقي والروحاني المفقود واسترداد الحقائق الأبدية. فمثلاً جون لويس بوركهاردت، الذي سافر إلى سورية وفلسطين وكتب عن أسفاره بين 1784 -1817، كان يحمل وجهات نظر تنكسية/

---

[36] Alsinjri, A., the Bedouins in Western eyes, Arabic Cultural Center, 2008. (book in Arabic): 14.

[37] Oppenheim, M., Braunlich, E., Caskel, W., Shubber, M., Bedouins, (n18): 81.

[38] مفهوم يُستخدم في الإشارة إلى السكان الأصليين الجاهلين والبدائيين، ولكنهم غير الملوثين بالحضارة الحديثة، ولديهم حكمة المسنين والتواصل بالطبيعة .ترجع العبارة نفسها إلى مسرحية جون درايدن بعنوان" غزو غرناطة" في عام.1672

انحلالية.[39] من ناحية أخرى، يعتقد الوضعيون: أن المجتمعات الغربية تطورت من همجيين، يعيشون في مجتمعات بدائية بعد مرورهم بمراحل مختلفة من التنظيم الاجتماعي وتراكم المعرفة، إلى كائنات مستنيرة تعيش في المجتمعات الغربية في القرن التاسع عشر. وقد تبنى وجهة النظر هذه بعض الباحثين الذين درسوا القبائل البدوية، مثل أوبنهايم. كانت القبائل- بالنسبة إلى هذه المجموعة من الباحثين- وحداتٍ حافظت على المرحلة البدائية التي مرّت بها الإنسانية الأوروبية تدريجيًا. استخدم بعض الباحثين هذا المفهوم لدراسة مفهوم الدولة في الشرق الأوسط. أما النظريات الأنثروبولوجية الأخرى التي تم أخذها بعين الاعتبار، فقد كانت تتعلق بما إذا كانت البشرية قد تطورت من عرق أصلي واحد، أو ما إذا كان هناك دائمًا أعراق مختلفة: العرق الواحد مقابل متعددي الأعراق. أثرت هذه النظريات على الطريقة التي نظر بها الباحثون والزائرون الغربيون إلى القبائل في الشرق الأوسط ، وعلى كيف نظروا في قضية القبائل ومكانها على سلم التطور، وأخيراً فيما إذا كان البدو في طريقهم للتطور أم التحلل.[40]

استخدم رحالة القرن التاسع عشر أساليب مقارنة في الأنثروبولوجيا لمحاولة فهم القبائل العربية. وقارنوا القبائل العربية "البدائية" بالـ "البدائيين" من سكان أمريكا الأصليين، واعتقدوا أن كلتا الفئتين يتقاسمان سمات مشتركة: كلاهما عدوانيتان، وبدائيتان، وقاسيتان. البعض، مثل وليام فرانسيس لينش، وهو ضابط بحرية أميركي زار المنطقة بين عامي 1801 و1856، انتقد بشدة القبائل العربية. قارنَ لينش بين العرب والقبائل الأميركية الأصلية، وخلص إلى: أن الأميركيين الأصليين لديهم القدرة على التحضر بواسطة تأثيرات ومظاهر الحضارة الغربية، في حين أن "البدائيين" العرب كانوا يتراجعون، وهي علامة تدل على انحطاط حضارتهم.[41]

انتقد من جهتهم باحثون ومفكرون عرب- في القرون اللاحقة- بشدة سرديات الرحلات الغربية. وأطلقوا على "التفسير" الغربي للثقافة الشرقية اسم "الاستشراق". جسّد هذا المصطلح المهين انتقاداتهم لهذا المنحى بأكمله وأشار إلى موقف الغرب المتعجرف تجاه الثقافة الشرقية.[42] شككت هذه الحركة في نيات الكتاب الغربيين، واتهمهم بعض منها بأنهم عملاء للاستعمار الغربي. واستهدف نقاد آخرون منهجية الرحالة والكتّاب الغربيين في القرن التاسع عشر، زاعمين بأن العلماء الغربيين استخدموا طرق آمنة، وتلقوا معلوماتهم من مرشديهم ومن القرويين من دون مزيد من البحث للتحقق من دقة رواياتهم. ونتيجة لذلك،

---

[39] انظر كتابه" رحلات في سورية والأراضي المقدسة". اشتهر بوركهارت بإعادة اكتشافه لمدينة البتراء القديمة في الأردن الحديث عام1809 ، وبزياراته المكثفة إلى الشرق الأوسط .في سورية، تنكّر بزي إبراهيم بن عبد الله لحماية نفسه من السرقة وإخفاء هويته الأوروبية .كان على اتصال وثيق مع القبائل البدوية، وفي ملاحظاته صنف القبائل جغرافيًا ووفقًا لنظامهم السياسي والاجتماعي .كما سجل عادات القبائل وثيابها وأذرعها ونظامها التشريعي وفنها وموسيقاها وشعرها.

[40] Steen, E.J. van der, Near Eastern Tribal Societies During the Nineteenth Century, (n3): 23-4.

[41] Steen, E.J. van der, Near Eastern Tribal Societies During the Nineteenth Century, (n3): 26-7.

[42] أطلق أنور عبد الملك، الفيلسوف المصري، في جامعة السوربون في باريس، مصطلح" الاستشراق" لأول مرة في مقالته" الاستشراق في أزمة" عام 1962. ولكن المصطلح اشتهر على يد إدوارد سعيد، العالِم العربي فلسطيني الأصل، الذي عمل في جامعة كولومبيا في نيويورك، وكرس كتابًا كاملًا عن المصطلح .انظر كتابه" الاستشراق"، الذي نشر عام 1979وأثار مزيدًا من المناقشات والردود المثيرة للجدل.

لم يتمكنوا معرفة الثقافة الحقيقية للمنطقة، ولربما جمعوا معلومات مُضلِلة و يخالطها بدرجات مختلفة الدين والتاريخ الشخصي وخيال الراوي. بالإضافة إلى ذلك، أثر الكتاب السابقون بوضوح على الكتاب اللاحقين الذين تبنوا نفس الأفكار، أو حتى نسخوها مباشرة، من دون محاولة إثبات أي من التصورات السابقة أو دحضها.[43]

"قرويون سوريون". من صور البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج الفارسي لأوبنهايم (١٨٩٩).

## 2. الباحثون والمفكرون العرب

كانت المنشورات العربية مصدرًا مهمًا آخرَ في البحوث لفهم القبائل في سورية. على الرغم من قلة الدراسات والمنشورات العربية حول القبائل في سورية كموضوع أنثروبولوجي، فإن الدراسات الحالية ركّزت في الغالب على نسب/ أصول القبائل، وأعدادها، وموقعها الجغرافي، وزعمائها. وأولَتْ تلك الدراسات اهتمامًا أقل للهوية القبلية، والبنية الاجتماعية الاقتصادية، والعلاقات بين القبائل والحكومات المركزية.[44] يمكننا العثور على عشرات الكتب من علم الأنساب، كتبها علماء اجتماع ومؤرخون مشهورون في أزمانهم،

[43] Suwaed, M., The Image of the Bedouin in Travel Literature and Western Researchers Who Visited Palestine in the Nineteenth Century, Kinneret College and Western Galilee College, Akko, Israel, 2016: 92-3.

[44] Khoury, P.S., and Kostiner, J., eds., Tribes and State Formation in the Middle East, (n4).

مثل: ابن حزم، والقلقشندي، وابن الكلبي، وغيرهم.[45] نُشرت هذه الكتب بين القرنين التاسع والرابع عشر، وبعد ذلك حصلت فجوة في الدراسات، خاصة في سورية، إلى أن نُشر كتاب "عشائر الشام" للباحث أحمد وصفي زكريا في عام 1945. يتألف الكتاب من 807 صفحة موزعة في جزأين باللغة العربية، وهو مثال نادر عن الكتابات العربية حول البدو والقبائل في سورية. أشار زكريا نفسه إلى أن باحثي العصر الحديث في سورية قد أولوا اهتمامًا أقل بكثير لقبائل وجغرافية بلادهم مقارنة بأسلافهم. ولم يتبعوا خط زملائهم الباحثين في العراق ومصر وفلسطين والأردن، الذين درسوا القبائل مع إيلاء اهتمامٍ خاص لفهم تكوين القبائل وتطورها كطريقة لفهم مجتمعهم.[46] وصف زكريا القبائل والعشائر في سورية ومنطقة المشرق، ونسبها، وجغرافيتها، وتقاليدها، وممارساتها، ومعتقداتها وتقاضيها، وشعرها، فضلاً على جهد الحكومة في التوطين والقوانين القبلية التي أُدخلت خلال الانتداب الفرنسي.

كتاب مهم آخر عن قبائل سورية، هو (فلاحو سورية: أبناء وجهائهم الريفيين الأقل شأنًا وسياساتهم)، كتبه الباحث الفلسطيني حنا بطاطو، الذي نشر عام 1999. ركّز بطاطو في معظم كتاباته على العراق، لكن كتابه عن سورية كتاب مبدع ومصدر مهم لعلماء الاجتماع المهتمين بفهم المجتمع السوري واقتصاده وسياسته. أشار بطاطو إلى تعقيد مختلف الهويات في سورية: القبلية، والريفية، والحضرية. وتحرى عن هذه الهويات ضمن مجموعات الأقليات المختلفة في سورية، بما في ذلك الأقليات الدينية والقومية، هو حقل عادة ما يتم إهماله عند دراسة الهوية القبلية في الشرق الأوسط. ينصب التركيز عادة على القبائل الرعوية، والبدو الرحل، ومعظمهم قبائل سنيّة. وعلى الرغم من أن كتاب بطاطو يمثل علامة بارزة، فإنه لا يزال مصدرًا محدودًا للغاية لدراسة القبائل؛ لأنه يعنى بصورة رئيسة بالجانب الريفي من المجتمع السوري أكثر من تركيزه على جانبه القَبَلي. في تحليله مختلف التشكيلات الاجتماعية للفلاحين السوريين، عكست دراسة بطاطو تصنيفًا معقدًا، لكن محدودًا للجماعات القبلية وغير القبلية داخل سورية. على سبيل المثال: ميّز بطاطو في كتابه بين خمس فئات من الفلاحين السوريين: (1) الفلاحون البستانيون والفلاحون الزراعيون. (2) الفلاحون المسالمون والفلاحون من أصل محارب. (3) الفلاحون من أهل السنة والفلاحون من أهل البدع. (4) الفلاحون بلا عشائر والفلاحون المرتبطون بعشائر. (5) الفلاحون مالكو الأرض والفلاحون غير المالكين. ورد الجانب القبلي هنا فقط في واحدة من تلك الفئات. ومع ذلك، فإن الكتاب هو دعوة ناجحة لأبحاث أعمق في المجتمع القبلي في سورية من خلال مزيد من التصنيف وتحليل الهوية الحالية التي تحتفظ بها مختلف الجماعات.[47]

---

[45] الكتب العربية في علم الأنساب، هي أكثر من أن يمكن للمرء أن يحصيها، ولكن على سبيل المثال لا الحصر :جمهرة أنساب العرب لابن حزم ، وأنساب معد واليمن الكبير لابن الكلبي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي.

[46] إشارة إلى زكريا، عشائر الشام، د.ط، (دمشق: دار الفكر، 1945)، ص5 .

[47] Refer to Baṭaṭu, H., Syria's Peasantry, The Descendants of its Lesser Rural Notables, and Their Politics, Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1999: 11-37.

في الآونة الأخيرة صدر كتاب في عام 2013 لمحمد جمال باروت عن منطقة الجزيرة السورية: (الحسكة، والرقة، ودير الزور)، وكيف تطورت تاريخيًا منذ منتصف القرن العشرين حتى السبعينيات. يدرس الكتاب مختلف موجات الهجرة العرقية إلى المنطقة وتفاعلها مع القبائل في المنطقة في سياق دراسة مختلف المشروعات التي هدفت إلى تطوير المنطقة من قبل العثمانيين، وبعد ذلك من الانتداب الفرنسي. ويعنى أيضًا بكيفية تأثير هذه الديناميكيات في الاندماج الاجتماعي والهوية القومية الجديدة على سورية الوليدة. يعد الكتاب مصدرًا قيّمًا لدراسة القبائل في الجزيرة السورية وتاريخ تحالفاتها، وهجراتها، وطموحها. وعلى الرغم من أن الكتاب مقتصرٌ على دراسة القبائل في سورية على منطقة واحدة وهي منطقة الجزيرة السورية من حيث مجال الدراسة وتركيز الدراسة على التنمية الاقتصادية والسياسية للمنطقة، مع تركيز محدود على الجوانب الأنثروبولوجية والاجتماعية فيها. ومع ذلك، فإن الكتاب مصدر مهم للغاية لفهم منطقة الجزيرة السورية فهمًا أفضل، باستخدام مصادر قيمة من المحفوظات (الأرشيف) الوطنية، والصحف القديمة، وكتب السيرة الذاتية حول الجزيرة السورية.[48]

## القبائل والدولة

لا يمكن أن تُدرس فكرة القبيلة بمعزل عن مفهوم الدولة. لقد فشل الباحثون في إنتاج تعريف مشترك للقبيلة؛ لأن المصطلح نفسه يغطي مجموعة واسعة من التشكيلات الاجتماعية. كما واجه الباحثون الذين درسوا الدول مشاكل مماثلة، وعانوا صعوبة في تحديد هذا المفهوم. قد يكون الوصول إلى تعريف واحد متماسك، ليس ضروريًا ولا حتى ممكنًا. علاوة على ذلك، فالوصول إلى فهم مشترك لمفهومات القبيلة والدولة، ينطوي على خطر قد ينتهي بافتراضات وتفسيرات خاطئة. غير أن من المهم تبني أدوات توضح مفهوم القبيلة، مع تجنب الوقوع في فخ التعميم أو التزوير أو حتى تبسيط الفكرة. إحدى الطرق التي اعتمدها الباحثون لتوضيح فكرة القبيلة، هي: أن نفهم القبيلة من خلال علاقتها مع الدولة. تقترح هذه المقاربة أنه يمكن تعريف كل من القبيلة والدولة في معرض فهم علاقتهما مع بعضهما بعضًا.[49]

لم تكن يوماًالمجموعات المعروفة باسم القبائل في الشرق الأوسط مجموعات معزولة من "البدائيين".[50] كانت دائمًا على اتصال مع الدول وممثليها. علاوة على ذلك، لعبت كل من الدول والقبائل دورًا نشطًا في

---

[48] محمد جمال باروت، التكون التاريخي الحديث للجزيرة السورية، (د.م: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013).

[49] Caton, S.C., Ideology and the Semiotics of Power, in: Khoury, P.S., and Kostiner, J., eds., Tribes and State Formation in the Middle East, Berkeley: University of California Press, 1990: 74.

[50] إن نزعة القبلية" البدائية" وفقًا لـ إرنست جيلنر في كتابه :أولياء الأطلسSaints of the Atlas "تغطي الجماعة القبلية التي هي وحدة سياسية مغلقة، التي لا تعترف بأي التزامات خارجها، والتي هي أيضًا نوع من وحدة ثقافية أكبر، لكنها تفتقر إلى الجسور المفاهيمية أو الرمزية مع العالم الخارجي".

تأسيس بعضها والحفاظ على بعضهما بعضًا. لقد أوكلت جميع الحكومات تقريبًا مسؤولية السيطرة على المناطق القبلية إلى زعماء القبائل، في حين لعب العديد من زعماء القبائل دورًا نشطًا في تجنيد أفراد قبائلهم لضمان مصالح الدولة. في الوقت نفسه، كانت القبائل دائمًا مشكلة للحكومات؛ كما كانت الحكومات دائمًا مشكلة للقبائل. لم تبق قبيلة في الشرق الأوسط غير متأثرة كليًا بأي دولة وتأثيرها في تشكيل القبائل أو تحويلها أو تشويهها.[51] على سبيل المثال: تجنبت بعض القبائل المتساوية في الصغر وجود قادة ذوي شخصيات قيادية ؛ أملاً في تجنب تدخل الدولة واهتمامها بتجنيد القبيلة. بينما قبائل أخرى أكبر، تمتعت بقيادة قوية، وامتلكت قوة هائلة تهدد الدولة، ولها القدرة على إطاحة الحكومة.[52]

يتفق المؤرخون وعلماء الأنثروبولوجيا على أنه لا يوجد اليوم مثال على وجود مجتمع قبلي "خالص" في الشرق الأوسط. ويمكن أن يعزى ذلك جزئيًا إلى تفاعل القبائل مع الدولة المركزية. لقد سعت تشكيلات الدولة المختلفة التي كانت قائمة في الشرق الأوسط، بما في ذلك الملكية، والطغم العسكرية، وغيرها من أشكال الحكومات الاستبدادية، إلى ممارسة سلطة قسرية حصرية، منذ وصولها لأول مرة إلى السلطة في القرن العشرين. كان السبب الرئيس لهذا السعي الدائم هو غياب الدعم لشرعيتها من قبل مختلف المجموعات الاجتماعية والسياسية، بما في ذلك القبائل. وفي الوقت نفسه، أدت عملية تشكيل الدول في الشرق الأوسط إلى تغييرات في الأشكال التقليدية للسلطة القبلية وإلى تدمير الولاءات القبلية. ظهرت مجموعات وحركات جديدة تحافظ على بعض الخصائص القبلية نتيجة لذلك، ولكنها محكومة الآن بعوامل أخرى، بما في ذلك الطبقة والعرق والأيديولوجيا.[53]

ذهب بعض الباحثين- إلى أبعد من ذلك- إلى الإشارة بأن هناك علاقة عكسية بين سلطة الدولة والقبيلة، وأن الهوية القبلية أكثر ثباتًا عندما تكون الهوية الوطنية أضعف من الهوية القبلية. استنتج بعض علماء الأنثروبولوجيا والمؤرخين، أن كثيرًا من القبائل كانت قادرة تاريخيًا على تشكيل دول. حيث أُقيمت الدول اعتمادًا على موارد القبيلة. هذه الدورة من علاقات القوة بين القبيلة والدولة ليست فكرة جديدة. كانت، على سبيل المثال، فكرة مركزية في نظرية ابن خلدون في القرن الرابع عشر حول تشكيل الدول في الشرق الأوسط.[54] إن علاقة القوى العكسية بين القبيلة والدولة واضح بشكل خاص في سورية

---

[51] Tapper, R., Historians, Anthropologists, and Tribespeople on Tribe and State Formation in the Middle East, in Khoury, P.S., and Kostiner, J., eds., Tribes and State Formation in the Middle East, (n51): 40.

[52] Thaber, R., Tribalism: historical paradox in the twenty first century, Omran Journal, vol. 14, 2016 (in Arabic): 12.

[53] Khoury, P.S., and Kostiner, J., eds., Tribes and State Formation in the Middle East, (n4): 6-7.

[54] Ibid: 7-10.

الحالية في زمن الحرب، ففي مواجهة فراغ السلطة وعدم وجود بديل مناسب لتوفير الحماية والخدمات الأخرى؛ تقوم القبائل بإعادة إحياء نفسها لسد هذه الفجوة.

## 1. القبائل والدولة في سورية

لم تكن القبائل معزولة عن السلطة القسرية للحكومة الرسمية في سورية. لكن وجودها وتفاعلاتها المتبادلة اختلفت وفقًا لنمط الحكومة الموجودة في السلطة، والسياسات التي تبنتها الحكومة لتتواصل مع القبائل. في حين أن الحكومات المركزية المتعاقبة في سورية قد تعاملت مع القبائل بطرق مختلفة، وضغط معظمها من أجل توطين البدو الرحل، فقد تنوعت سياسات التوطين بين سلمية وعنيفة. تبنت الإمبراطورية العثمانية، والانتداب الفرنسي، والحكومات الوطنية المستقلة، ونظام الأسد، استراتيجيات مختلفة لتجنيد القبائل والحد من تهديدها. خلال بعض الفترات، تم التسامح مع السلطة القبلية، وتم السماح للقبائل بممارسة القوانين القبلية بحرية أو بوجود حد أدنى من الإشراف. بينما في فترات أخرى، كانت الحكومة قمعية للغاية، وألغت أي اعتراف رسمي بالقوانين القبلية.

من الجدير بالذكر أن هذه الممارسات اختلفت وفقًا للاستراتيجية الكلية للحكومة المركزية . كان العثمانيون مهتمين بتثبيت حكمهم على المنطقة العربية، بما في ذلك سورية، حيث سعوا إلى إيجاد نظام قانوني وإداري وزراعي، وبدؤوا بتنظيم ملكية الأراضي للقبائل والسيطرة على أسلحتهم. بالإضافة إلى ذلك، سعى العثمانيون، كلما أمكن، إلى فرض الضرائب وجمعها، وقد وقع هذا العبء بشكل أساسي على القبائل الأصغر والأضعف.[55] من ناحية أخرى، كان الانتداب الفرنسي مهتمًا بإبقاء سورية تحت سيطرته ومحاربة الحركة القومية والأيديولوجية القومية الوليدة، التي قادت الثورة العربية ضد العثمانيين، وكانت وراء هزيمة الإمبراطورية العثمانية في المنطقة العربية؛ لذلك قرر الفرنسيون "فرق تسد" كأفضل استراتيجية، وحاولوا كسب ولاء الأقليات من أجل وضعهم في مواجهة مع المشروع القومي. تعامل الفرنسيون مع الأقليات والقبائل البدوية على تلك القواعد، وأعطوها حقوق الحكم الذاتي، التي أثرت على كل من الهوية القبلية والوطنية.[56] ثم أتت الحكومة الوطنية المستقلة، والجمهورية العربية المتحدة، التي اتبعت سياسة التجانس لبناء هوية قومية واحدة. لقد سعتا إلى توطين القبائل البدوية وتقليص أي ممارسة لتقاليدهم وقوانينهم العرفية.[57] وأخيرًا، في عهد الأسد، عمل النظام بدهاء على تقديم الرعاية إلى القبائل واستخدامهم لدعم سلطة الأسد، وفي الوقت نفسه تقويض وحدتهم وتغيير هويتهم. لقد عمل نظام الأسد بعناية لربط

[55] Khoury. F., The Tribal Shaykh, French Tribal Policy, and the Nationalist Movement in Syria between Two World Wars, Middle Eastern Studies, 1982.

[56] Chatty, D., The Bedouins in Contemporary Syria: The Persistence of Tribal Authority and Control, Middle East Institute 64(1), 2010.

[57] Suwaed, M., Historical Dictionary of the Bedouins, Rowman & Littlefield, 2015; Mahhouk, A., Recent Agricultural Development and Bedouin Settlement in Syria, Middle East Journal 1(2), 1956.

القبيلة مع نظامه، ليس فقط من الناحية السياسية، ولكن حتى من الناحية الاجتماعية، من خلال التدخل في صلحاتهم القبلية وفي تعيين الشيوخ.[58]

في حين أن كل هذه الجهود أضعفت الهوية والوحدة القبليتين في سورية، إلا أنها لم تنجح في إلغاء هذه الهوية بالكامل. يمكن أن يكون السبب الرئيس مرتبطًا بحقيقة أن الحكومات المركزية المتعاقبة، فشلت في توفير نظام اجتماعي وسياسي أفضل، نظام يمكن أن يؤمن الإحساس بالأمن والانتماء الذي كانت القبيلة قادرة على توفيره عبر التاريخ. هذا هو السبب الذي يجعلنا نرى- الآن- في سورية: كيف بدأت الهوية القبلية في الظهور مرة أخرى، وكيف استُعيدت الطرق التقليدية لملء الفراغ في السلطة الذي خلّفته الأزمة، في سورية الآن، والمستمرة منذ ثماني سنوات.

## 2. القبائل والصلحة القبلية في سورية ما بعد الأزمة

التغيير الأكثر تميزًا في البنية القبلية، في وقت ما بعد الأزمة في سورية، هو انتقال القبائل والعشائر في سورية نحو العمل المؤسسي. ويرجع ذلك إلى أسباب مختلفة، بما في ذلك أثر الانهيار السياسي والاقتصادي على البنية القبلية، وظهور شيوخ مختلفون لنفس العشيرة، وحركات النزوح واللجوء الذي كان له أثر تشتيتي على المواقع الجغرافية للعشائر. بالإضافة إلى ذلك، كان هناك ارتفاع في عدد الأفراد الذين يدعي كل منهم أنه شيخ عشيرته، بعد أن ضعفت القيادة الطبيعية للقبيلة خلال حقبة الأسد، التي جعلت من الصعب على شخص واحد بمفرده أن يدعي السيطرة الحصرية على قبيلته. وهكذا بدأ شيوخ القبائل بالتجمع في مجالس تمثل قبائلهم المختلفة، مثل: مجلس عشيرة البوشعبان، ومجلس قبائل الجبور، ومجلس قبائل النعيم، وغيرها من القبائل. تهدف هذه المجالس إلى مواجهة آثار الحرب وإلى تقديم نوع من التضامن والخدمات للعشائر القبلية. وكانت الخطوة التالية هي توحيد جهود المجالس المختلفة لكل قبيلة؛ لتشكيل مجموعة من القبائل ممثلة بمجلس واحد، مثل: اتحاد القبائل والعشائر السورية، ومجلس العشائر والقبائل الحرة، ومجلس القبائل والعشائر في وادي الفرات، لكن الكيان الأكثر أهمية حاليًا، من حيث العدد والتأثير، هو المجلس الأعلى للقبائل والعشائر السورية. بالإضافة إلى دورها في تقديم الخدمات الاجتماعية، تلعب المجالس أيضًا أدوارًا سياسية وعسكرية كبيرة في الصراع.[59] استبدلت هذه المجالس حكم الشيخ التقليدي كشخصية اجتماعية وزعامة سياسية، وهو تحول مهم في ديناميكية القبائل. علاوة

[58] Van Dam, N., The Struggle for Power in Syria: Politics and Society under Asad and the Ba'th Party, London: I.B. Tauris, 2011.

[59] مقابلة المؤلف مع أحد أعضاء المجلس الأعلى للقبائل والعشائر السورية، 28كانون الأول /ديسمبر 2018.

على ذلك، ربما يعكس رغبة القبائل في أن تندمج بشكل أفضل في المشهد الاجتماعي والسياسي في البلاد. كما وتلعب المجالس المختلفة للقبائل أيضًا دورًا مهمًا في حل النزاعات عن طريق الصلحة القبلية.[60]

بعد عام 2011، بينما بدأ عدد من المناطق في سورية يخرج عن سيطرة النظام السوري، فقدت هذه المناطق إمكانية الحصول على كثير من الخدمات التي تقدمها الحكومة المركزية. ومن بين هذه الخدمات كانت الخدمات القضائية وإجراءات التحكيم. حاولت المؤسسات والمبادرات القانونية، مثل مجلس القضاء السوري الحر الذي تأسس عام 2012، تقديم نفسها كبديل.[61] ومع ذلك، كان تأثير هذه الهيئات في تنظيم وإنشاء بديل للمحاكم الرسمية ضعيفًا للغاية. لم تعمل أي من الهيئات السياسية التي شكلتها المعارضة ، كالمجلس الوطني السوري، أو خلفه الائتلاف السوري، على سد الفجوة القضائية بما فيه الكفاية.[62] وهكذا، تُركت لمختلف الفصائل العسكرية ولبعض المؤسسات المدنية لتنظيم وسد الفجوة بالمبادرات المختلفة. وكانت بعض هذه المبادرات أكثر عملية وفعالية من غيرها، ولكنها افتقرت بشكل عام إلى الوحدة، ولم تكن كافية لسد الفجوة القانونية.

أسست الفصائل المختلفة- التي تسيطر على المناطق الخارجة عن سيطرة النظام- المحاكم الشرعية والعسكرية كبديل. ولجأت هذه المحاكم إلى الشريعة الإسلامية[63] كمصدرٍ للقانون، ومع ذلك، لا توجد طريقة واضحة حول كيفية تطبيق الشريعة في النزاعات المختلفة.[64] بعض المحاكم، عادة المحاكم المرتبطة بأشد الفصائل العسكرية أصولية مثل جبهة فتح الشام (المعروفة سابقًا باسم جبهة النصرة)، كانت تؤمن بالتفسير الحرفي للشريعة. وفي رأيهم، ينبغي أن يُرفَض أي جهد لقوننة الشريعة باعتباره متضاربًا مع التعاليم الإسلامية الحقيقية؛ لأن القوننة تمثل قراءة واحدة فقط للشريعة، وبالتالي تؤدي إلى إغلاق الباب أمام المزيد من الاجتهاد في الفقه الإسلامي. من ناحية أخرى، لجأت بعض الفصائل الأكثر تسامحًا إلى عدد من الأنظمة القانونية المستمدة من الشريعة والمبوبة بطريقة تحاكي القانون المدني الحديث. وتبنى بعضهم "القانون العربي الموحد"، الذي يعد نموذجًا للقوانين المستخرجة من الشريعة الإسلامية التي أنشأتها

---

60 "في كل أسبوع، لدينا أربع إلى خمس مصالحات (صلحات)، إما نتيجة منازعات تجري في تركيا أو في سورية"، كما قال أحد شيوخ المجلس الأعلى للقبائل والعشائر السورية خلال مقابلة في 24 أيلول /سبتمبر 2018.

61 أنشئ مجلس القضاء السوري الحر من قبل أربعة قضاة منشقين .وأطلق المجلس عددًا من المبادرات والهياكل للهيئة القضائية، لكنها فشلت- في نهاية المطاف- في توفير سلطة قضائية قوية موحدة . مجلس القضاء السوري المستقل الحر، عنب بلدي، كانون الثاني /يناير 2016 ،https://english.enabbaladi.net/archives/2016/01/free-independent-syrian-judiciary-council-2/ آخر زيارة في 14 شباط /فبراير 2019 ، ونزير رضا، قضاة منشقون يعلنون تأسيس مجلس القضاء السوري الحر، جريدة الشرق الأوسط، (مقالة)، أيلول /سبتمبر 2012 ، http://archive.aawsat.com/details.asp?section=4&issueno=12351&article=696249#.XFAf162ZPs0، آخر زيارة في 29 كانون الثاني /يناير 2019.

62 يضم مجلس القضاء السوري الحر 85 قاضيًا، يسعون إلى التغيير، عنب بلدي، كانون الأول /ديسمبر 2015 ، https://www.enabbaladi.net/archives/56702, آخر زيارة في 29 كانون الثاني /يناير 2019.

63 الشريعة الإسلامية، أو القانون الإسلامي، هي المستمدة من مبادئ الإسلام، ولا سيما القرآن وسيرة النبي محمد.

64 Assad Hanna, Syria's Sharia Court, Al-Monitor (e-newspaper), December 2016, https://www.al-monitor.com/pulse/originals/2016/02/syria-extremist-actions-sharia-courts-alepipo-dlib.html, last visited on 29/01/2019.

الجامعة العربية كنموذج في محاولة لتوحيد الأنظمة القانونية في الدول العربية.[65] وقد حاكى توزع المحاكم الشرعية الخريطة الميدانية للفصائل العسكرية، واستخدمت المحاكم قوات الفصائل العسكرية لتنفيذ قراراتها ولكسب الشرعية. لم تكن محاكم الشريعة قادرة على إيجاد بديل عادل ومقبول للمحاكم القائمة لدى الحكومة، ويرجع ذلك إلى ثلاثة أسباب: أولًا، كثيرًا ما تتعارض أحكام هذه المحاكم، لا سيما في المحاكم التي تستخدم الشريعة غير المقوننة، والتي تركت الحكم لتقدير القاضي. لدى القاضي، في هذه المحاكم، سلطة تقديرية ، ليس فقط في التوصل إلى نتيجة نهائية، ولكن أيضًا عند تنظيم التقاضي. وقد أدى ذلك إلى تضارب في قرارات القاضي وإلى نوع من التقلبات في العقوبات المطبقة. السبب الثاني، يتعلق بعدم استقلالية القضاء في هذه المحاكم، ويرجع ذلك إلى السيطرة المباشرة للفصائل العسكرية التي تستخدم المحاكم كأداة لتحقيق مصالحها ولتعزيز حكمها على المناطق التي تعمل فيها تلك المحاكم. ثالثًا، إن القضاة في المحاكم الشرعية (الشرعيين) هم رجال دين قليلي الخبرة في الشؤون القانونية، وبدون أي نوع من التعليم العالي في معظم الحالات، مما جعلهم غير قادرين على ممارسة مهامهم بكفاءة.[66]

كما لعبت منظمات المجتمع المدني دورها في توفير بدائل قضائية للنظام. ومن الأمثلة على ذلك: المحامون السوريون الأحرار، وهي منظمة مدنية محلية، نجحت في إنشاء مراكز للتحكيم في عام 2014 في عدة مناطق خارجة عن سيطرة النظام. حاليًا، لديها خمسة مراكز موجودة في المناطق الشمالية وإدلب. وتعتمد مراكز التحكيم على "قانون التحكيم السوري رقم 4 لعام 2008" كمصدر للقانون وتقوم بالتعاون مع المحامين والقضاة والمهندسين والتجار وزعماء القبائل لتشكيل لجان تحكيم. تفتقر المراكز إلى أدوات التنفيذ، وبالتالي تستخدم الضغط الاجتماعي لتنفيذ الأحكام النهائية. هنا، تستخدم المراكز منطق مماثل لذلك الخاص بالصُلحة القبلية والتي تستخدم الأعراف الاجتماعية، مثل: الشرف، والسمعة الطيبة، بالإضافة إلى ضغوط الشبكات الاجتماعية المختلفة، مثل: العائلة، وزملاء العمل، والجيران، لفرض مفهوم مشترك للأخلاق والمسؤوليات.[67]

ما تزال الصلحة القبلية بديلًا مهمًا وفعالًا للنظام القضائي المركزي بسبب تجذرها العميق في المجتمع القبلي الواسع الانتشار في سورية. ووفقًا لعدد من زعماء القبائل الذين تمت مقابلتهم لغرض هذه الدراسة، فقد ازدادت ممارسة الصُلحة ازديادًا كبيرًا منذ انتفاضة عام 2011 بسبب عودة القبلية، وارتفاع عدد النزاعات، وعدم وجود بديل قانوني موثوق. بالإضافة إلى ذلك، تبدو الصُلحة أنها نموذج جاهز كما أنه مرنٌ بما فيه الكفاية للتكيف مع الصراعات الناشئة، مع احتفاظها بالشعبية والأشخاص ذوي الخبرة لممارستها. تُمارس الصُلحة حاليًا على مستويات مختلفة: في النزاعات بين الأفراد من نفس القبيلة أو العشيرة، أوبين

---

[65] Mickael Ekman (ed), ILAC Rule of Law Assessment Report: Syria 2017, International Legal Assistance Consortium (ILAC), November 2016.

[66] مقابلات الباحث مع عدد من شيوخ القبائل في ريف حلب ومناطق إدلب.

[67] مقابلة الباحث مع منظمة المحامين السوريين الأحرار، 20كانون الأول /ديسمبر.2018

الأفراد من مختلف القبائل أو العشائر، أو بين قبيلتين أو عشيرتين مختلفتين، أوبين الفصائل العسكرية. تُمارس الصُلحة القبلية في الغالب بين المجموعات العسكرية حيث يشارك أفراد القبائل كقادة ومقاتلين، مثل: جيش أحرار العشاير في مدينة درعا قبل أن تعود المدينة إلى سيطرة النظام، وأحرار الشام، والجيش الوطني في شمال حلب.[68]

وبذلك استطاعت الصُلحة القبلية حلّ عدة أنواع من الصراعات القديمة والجديدة الناجمة عن الحرب في سورية. وأحد أنواع الخلافات الجديدة التي تعاملت معها الصُلحة بعد الصراع في سورية، هي الصراعات الناشئة بين الفصائل المقاتلة المدعومة من قبل القبائل المختلفة مادياً وعن طريق تزويدها بالمقاتلين. تقع الصراعات بين الفصائل العسكرية بسبب الخلافات على تقاسم النفط، والفديات، وأسرى الحرب، ونقاط التفتيش، ومناطق السيطرة: على سبيل المثال لا الحصر. وقد حاول زعماء القبيلة في هذه الحالة، خوفًا من تصاعد العنف، أن يتدخلوا بين الفصائل المتقاتلة لحل القضية باستخدام الأعراف القبلية. على سبيل المثال: عندما اندلعت مشكلة بين هيئة تحرير الشام جبهة تحرير سوريا حول مناطق سيطرتهم في إدلب قبل نحو 6 أشهر، تم التوصل إلى تسوية بين الطرفين من قبل العديد من شيوخ القبائل. واتفقوا على وقف إطلاق النار وشروط تبادل أسرى الحرب. وكان ممثل عن المحكمة الشرعية أيضًا حاضرًا، لكن الفاعل الرئيس في المصالحة، هو: الشيوخ. وقد تمت إجراءات الدعوى وفقًا لسلطة القبائل. من المهم أن نلاحظ تواجد مقاتلون من قبيلة الحديديين في إدلب بين قوات جبهة النصرة ، ومقاتلون من قبيلة الموالي في جبهة تحرير سوريا. هذا ما يجعل الصُلحة مألوفة ومُعترف بها من قبل أفراد الفصيلين ممن هم جزء من المجتمع القبلي. ومع ذلك، حتى الأجانب الذين يقاتلون في جبهة النصرة الذين يأتون من دول عربية أخرى مثل السعودية ومصر ينتمون أيضًا إلى مجتمعات ذات هوية قبلية، ويعدون القبلية جزءًا من هويتهم ويقبلون الأعراف الاجتماعية. على الرغم من ذلك فهم يفضلون الشريعة وعقوباتها القائمة على القصاص، لكنهم سيسمحون بقيام الصُلحة عندما لا يكون هناك حل آخر بين أيديهم، وكلما كانت الطريقة الأكثر فعالية للحفاظ على سيطرتهم.[69]

بعد عام 2015، وبعد أن أحكمت المحاكم الشرعية والفصائل العسكرية الإسلامية سيطرة أشد على المناطق الواقعة خارج سيطرة النظام، في شمال حلب ومدينة إدلب، بدأت المجالس القبلية والشيوخ ببناء تحالفات أوثق مع المحاكم وقضاتها الشرعيين. تعمل مجالس، مثل مجلس وجهاء المخيمات ، والمجلس العام للوجهاء الأحرار، على تشكيل لجان تحكيم تتألف من شيوخ القبائل، والشرعيين، ومن بعض رجال الشرطة والمحامين لحل النزاعات والدعاوى المقدمة من المدنيين. تستخدم هذه اللجان توليفة غير مكتوبة بين الشريعة الإسلامية والقوانين القبلية كمصدر للحكم والإجراءات.[70] ومع ذلك، فإن تأثير ممارسة

---

[68] مقابلات الباحث مع عدد من شيوخ القبائل في ريف حلب ومناطق إدلب.

[69] مقابلة الباحث مع شيخ عشيرة بني سعيد في ريف حلب، 24أيلول /سبتمبر.2018

[70] مقابلة الباحث مع أحد شيوخ مجلس قبيلة النعيم في الريف الجنوبي لحلب، 28كانون الثاني /يناير.2019

الصُلحة على التحكيم واضح في الأحكام النهائية التي تنطوي عادة إما على دفع مبلغ من المال (الدية) أو على طرد الجاني (الجلوة)، وهي الأحكام نفسها المنصوص عليها في القوانين القبلية. إضافة إلى ذلك، لم تلغي ممارسات المصالحة هذه الدور التقليدي للعارفة (قاضي القبائل) الذي ما يزال يمارس الصلحة اليوم كما كانت عليه منذ قرون.

إن النزعة القبلية آخذة في التجدد، وما زالت الصُلحة القبلية تُمارس في سورية اليوم، بل أكثر مما كانت عليه قبل الصراع، بسبب الحاجة المتزايدة كنتيجة للحرب إلى مثل هذه الآلية. غير أنها تواجه تحديات جديدة، من الهوية والبنية والقيادة القبلية إلى الطبيعة المتغيرة للصراعات نفسها. إن الصُلحة القبلية متجذرة بعمق في الوعي الجمعي للمجتمع السوري والعربي ككل، ونتيجة لذلك، فإن منطق الصُلحة وممارساتها وأحكامها يتم استعارتها اليوم في سوريا، كليًا أو جزئيًا، من خلال أنواع مختلفة من المصالحة غير الحكومية ومن مبادرات التقاضي.

## ملاحظات ختامية

لقد مرّت القبائل في سورية بمراحل عدة من التغييرات والتكيفات. ومع ذلك، اختلفت درجة هذه التغييرات من قبيلة إلى أخرى؛ ما أدى إلى درجات مختلفة من الهوية القبلية بين القبائل المختلفة. كانت العوامل المؤثرة ذاتية وموضوعية. أما العوامل الذاتية فكانت مستمدة من حجم القبيلة ووحدتها ونفوذها وقوة زعامتها. ومن ناحية أخرى، اشتملت العوامل الموضوعية على التأثيرات الجغرافية والسياسية. إن موقع القبيلة القريب من المجتمعات المستقرة، أو من المناطق المؤثرة مثل الحدود أو طرق التجارة، يؤثر في طريقة تطور القبائل. إضافة إلى ذلك، لعبت درجة تفاعل القبائل مع الحكومة المركزية دورًا مهمًا في تحولها. حاولت الحكومات المركزية المتعاقبة في سورية منذ القرن التاسع عشر الضغط من أجل توطين القبائل والتحكم في الانتماء القبلي بكلٍ من الأساليب السلمية والقهرية. ومع ذلك، تجدر الإشارة إلى أن هذه الممارسات اختلفت اعتمادًا على استراتيجية الحكومة المركزية المتبعة تجاه القبائل. هناك عامل آخر يميز القبائل في سورية، هو انتماؤها إلى قومية معينة أو إلى طائفة دينية معينة والذي سيطر على التجارب التاريخية للقبائل وآلياتها في البقاء. وبما أن القبائل في سورية لم تتطور جميعها بطريقة مماثلة، أو في إطار زمني متشابه، فقد لا يكون من الدقة وضعها في سلة واحدة ودراستها بوصفها كتلة واحدة من المجتمع.

الهوية القبلية هي هوية أساسية في المجتمع السوري، وستستمر حاضرة في المستقبل؛ لأنها جزء من شعور مجتمعات واسعة في سوريا بالانتماء والشعور بالأمن. وعلى الرغم من أن العوامل المذكورة أعلاه جميعها أضعفت الهوية القبلية والوحدة في سورية، فإنها لم تستطع إلغاء هذه الهوية كليةً. هذا هو السبب الذي يجعلنا نرى- الآن- في سورية عودة ظهور الهوية القبلية. كما و بدأت الطرق التقليدية لحل النزاع، بما فيها الطرق القبلية، بالعودة لملء الفراغ الناجم عن الأزمة السورية. هذا يشير إلى صلاحية موضوع القبيلة في سورية اليوم، ويشير إلى دور القبائل في تأمين مستقبل سورية واستقرارها.

| | |
|---|---|
| اسم الدراسة الأصلي | Closer look at Tribal Identity and Tribal Structure in Syria |
| الكاتب | ديما حسين، Dima Hussain |
| مكان النشر وتاريخه | مركز حرمون للدراسات المعاصرة- برنامج الباحثين الزائرين الدوليين |
| رابط الدراسة | https://harmoon.org/tribal-identity-structure-syria/?lang=en |
| عدد الكلمات | 9118 |
| ترجمة | وحدة الترجمة/ أحمد عيشة |